قصة مصرية

قلب جديد

بقلم الاستاذ اسماعيل الحبروك

أجهد خليل نفسه في تهدئتها ولم يستبن من الفاظها التي تخنقها العبرات إلا قولها : سامحني يا خليل . لو عرفت عذري ما قسوت علي هكذا وكانت قبلاته وتوسلاته كفيلة باذهاب شجنها ، فانطلقت تقول :

- لقد كاد الوغد ينجح في هدم سعادتنا .

- من هو الوغد الذي تعنين ؟

- سمير صالح . لقد اخبرني بقصتك قبل مجيئك . وقد فهمت كل شيء قبل ان اصل الى درج منزلك . واني طالما اعربت لك عن قلقي من نظراته اليومن نواياه نحونا ولم تعبأ . اتذكر يوم جاء يلتقط لنا الصور الفوتغرافية ؟ لقد صرح لي اليوم بأنه كان يطمع ان تضمني واياه صورة تبقى عندنا لكي اتذكره دائماً .

اني لن اكتمك شيئا مما قال لي قبل مجيئك . لقد حاول ان يستدرجني الى المطعم الذي كنت فيه لاقتنع بخيانتك بعد انارك بعيني رأسي . لاشك عندي في انه هو الذي ساق الى طريقك تلك العاهرة ليمهد لي سبيل الانتقام منك . وان حياتي لأهون علي من ان اكرهك يوما او اطيع فيك شيطانا مثله .

وهنا تذكر خليل انه رأى صورة سمير بين صور اخرى في حقيبة فتاة المطعم ، وقبل ان يقول لها ذلك استرعى انتباهه قولها :

- اتعرف ماذا قال ايضاً ؟ قال انه سينتظرني بالمقهى المواجه لمنزلي لكي اجالسه هناك اذا سئمت وحدتي . طل من النافذة وسترى الخبث كله موضوعا فوق احد الكراسي . . تعال . . ها هو الانسان الذي .. وبعد .. فاصل منظره يقنعك بأن تحجر مبادئك فلا تعود تحب هذه الانسانية التعيسة .

- حقا ان هذا امر يجل عن الوصف . لكن لا تنظي يا بثينة ان المبادئ السامية تغيرها الحوادث الوضيعة ، وليس كل الناس على شاكلة هذا الفتى الفج بل ان هذا الفتى نفسه فريسة سوء التربية وفساد القدوة . ولو انه تعلم الخير لعشقه ولاكرم نفسه ولما عرضها لقسوة هذا البرد وهوان هذا الاحتقار .

نظرت بثينة الى وجه زوجها وقد ازدادت به اعجابا

- . . . . اذن انتظرني فبعد دقائق سأكون عندك !

بهذه العبارة ختمت المحادثة التليفونية التي جرت بيني وبين صديقي - الدكتور مصطفى السماع - الطبيب بمستشفى الامراض العقلية بالعباسية .. ولم تكد تمضي دقائق حتى كنت مندفعا بكل ما في سيارتي من قوة انهب الطريق الطويل المؤدى الى المستشفى .. فقد كنت توا قا منذ أمد بعيد لزيارة هذا المكان الذي ضلت رحمة السماء سبيلها اليه .. فظل قفرا من نور الآلهة وبركات الانبياء والقديسين . . وصلت الى باب المستشفى فاستقبلني البواب مرحبا ودلفت على قدمي من الباب الحديدي الكبير الذي يفصل بين ارض العقل وارض الجنون .

وانقبضت منذ وطئت اقدامي تراب هذه الارض التي استعصت على الملائكة .. ولكني تحاملت على نفسي واسرعت الى المبنى القائم وسط المكان المخصص للأطباء محاولا ان احول بين حواسي وبين نباح هؤلاء الادميين التعساء .

كان صديقي في حجرته ومعه احد مرضاه فقام يرحب بي ثم قدم مريضه الي قائلا :

- هذا هو (احمد) مريضي المفضل . . انه الرجل الذي تخطى حدود العبقرية فلم يعد من مقامه ان يعيش بين الناس

فرأت في قسماته وابتسامته كل المعاني التي كانت اصل عشقها له وسبب تمليكه روحها ، ثم نظرت الى ساعة يدها واطفأت المصباح ؟

القاهرة :

عبده فراج

فظل هنا معززا مكرما .. وهذا يا [احمد] صديقي الذي كنت احدثك عنه ، القصاص الذي يحاول ان يملأ فراغ الماطلين بما يكتب ! وضحك صديقي وابتسم [احمد] مريضه الأثير ثم اعتذر الطبيب بانه سيمر حالا في قسم الحريم وسيستغرق المرور نصف ساعة على اكثر تقدير وحين يبدأ بقسم الرجال سيدعوني للمرور معه وتمنى لي وقتا طيبا مع [احمد] ثم خرج ..

احسست بالاضطراب حينما وجدت نفسي انا و [احمد] وجها لوجه ولكن سرعان مادفنت اضطرابي في محاولة الحديث معه :

— هل انقضى عليك وقت طويل هنا يا سيد [احمد] ؟

— عامان .. وارجو قبل ان نبدأ صداقة قد تكون وطيدة ان تناديني بالدكتور احمد

وابتلعت ابتسامتي وانا اقول :

— انت طبيب اذن .!

— اجل كنت طبيباً .. ولكني الآن اكره الطب والاطباء وان كنت اعتز بصداقة الدكتور — مصطفى — فلأنه انسان اكثر منه طبيب .. قد لا تصدقني لأنك تتحدث مع مجنون .

— استغفر الله .. لقد قال عنك الدكتور — مصطفى — انك الرجل الذي تخطى حدود العبقرية فلست مجنونا بحال .. ولاشك ان لوجودك هنا قصة شيقة للغاية ..

— ربما .. وان كان وجودي في هذا المكان سيدعوك للتشكك في هذه القصة .. ولكن لابد أن احدثك بها .. فلست في حاجة الى من يصدقني بل على العكس انا في حاجة الى من لا يصدق قصتي .. في حاجة ماسة الى كل من يكذبني .. ويصرخ في وجهي بأعلى صوته .. انت كاذب .. سأرويها لك لترويها انت بدورك لقرائك فقد ضقت ذرعا بكتمانها بين اضلعي والحنايا .

واعتدلت في جلستي وطلب [احمد] سيجارة فاعطيتها له ، فظلت في يده طول الحديث دون ان يشعلها او يتركني اشعلها له .. ومال برأسه الى الخلف وبدأ يجتر ذكريات ماضيه بصوت مسموع واضح النبرات قال :

— كان هذا منذ اربعة اعوام في مدينة بورت سعيد حيث كنت اعمل كطبيب ثان باحدى مستشفيات الحكومة .. وكنت مثلا حيا للطبيب الشاب المستقيم . فمن البيت للعيادة الخاصة للمستشفى الحكومي ، ثم للبيت مرة اخرى لادفن نفسي بين مؤلفات الطب الحديث .. فالقراءة كانت شغلي الشاغل ، وسلوتي التي لا امل منها ولا احيد عنها .

وذات مساء كنت في مكتبتي حينما دق جرس باب البيت فقمت لأري الطارق فاذا بها سيدة قد جاوزت الخامسة ممن عمرها تملأ عينيها الدموع .. ومن وراء دموعها كانت تطلب النجدة .. اسرعت الى حقيبتي الصغيرة احملها واندفعت معها الى بيتها ..

وفي الطريق لم تنقطع دموعها لحظة ، فحاولت ان اطمئنها بشتى عبارات المجاملة التي تعارف عليها الناس في مثل هذه الظروف ، ولكن عبثا كنت احاول . ووصلنا الى منزلها وقادتني المريض ..

كانت فتاة في العشرين من عمرها جميلة رائعة الجمال . كانت ممتعة في الفتنة .. سخت الطبيعة معها في كل شيء .. حتى في المرض ، ولم تضن عليها بشيء ولا بالألم ..

كانت باهتة بيضاء كالملائكة . رخوة كالزهور الندية على الغصن الرطيب ، اشارت لي بيدها البيضاء الناصعة البياض الى قلبها موضع علتها ، فقد كانت مريضة بالقلب .. ووضعت السماعة على قلبها ، فهالني تلعثم دقاته واضطرابها . حاولت كأي طبيب بما مي من حقن ان اعيد الى وجناتها حمرة الورد التي اختلستها هذه الازمة المفاجئة .. واعيد قلبها الى انتظامه ..

ولكن قلبي انا الذي اختل واستعصى علي ان اعيده مرة اخرى الى ضرباته المنتظمة وحالته العادية

ومن هذه الليلة اضفت الى برنامج اليوم زيارة هذه المريضة .. وتكررت الزيارات ، وتعددت حتى توطدت الصلة بيني وبين هذا البيت المؤلف من هذه الارملة و — رجاء — ابنتها الوحيدة توطدت الى حد بعيد .. الى حد اني كنت ازور البيت لاستشفي فيه لا لأعود المريضة التي تقطنه وبادلتني

ـ رجاء ـ الحب ودفعتها علتها الى العنف في عاطفتها فقاقتني في حبي لها واصبح الذي تكنه لي انوى واعنف من ان اسميه حباً . !

ولم ترحم ازمات القلب ـــ رجاء ـــ الغالية ولكني كنت ابذل فوقما استطيع لاطيل فترات الهدوء بين الازمات فكما تعلم ان الطب مازال مكتوف اليدين امام هذه الآلة العجيبة الدقيقة التي تدير حياة الانسان وتتحكم فيه

وذات يوم سقطت ساعتي من فوق المكتب .. فكفت عن الحركة .. فحملتها بنفسي الى رجل الساعات ليصلحها ؛ فلما رآها وفحصها .. نظر الي ومازال منظاره المقرب يعتلي عينه اليمنى وقال :

ـ انها في حاجة الى بندول جديد .. سأنزع القديم وأضع لها بندولا آخر !

في هذه اللحظة قفز الى ذهني خاطر مفاجئ ؛ دفعته الى ذهني عبارة رجل الساعات هذا .. فلماذا لا احاول انا الآخر ان استبدل قلب ـــ رجاء ـــ المريض بقلب سليم تواصل به حياتها .. !

جنون فكرة ، أوفكرة مجنون ، سمها ماشئت .. ولكن من هذه اللحظة استولى على هذا الخاطر ؛ وبدأ يؤرق ليالي وايامي ، فلم استطع الا ان اخصص جانباً من العيادة للتجارب وبدأت اجري حلقة طويلة من التجارب على الكلاب والقطط الضالة التي كنت التقطها من الطريق فلما استنفدتها جميعا ادخلت الارانب تحت التجربة !.

قضيت خمسة شهور لا أعرف النوم ولا الاغفال ولا الراحة ، خمسة شهور في حرب متواصلة وكفاح دائم .. لم اعرف الكلال لحظة ولم اواجه اليأس مرة .. اهملت عيادتي وتهاونت في عملي بالمستشفى الى ان كانت ليلة .. ليلة لا انساها وهل يمكن ان انسى الليلة التي تقاضيت فيها ثمن ارقي وعرقي ودموعي طيلة هذه الشهور !! لقد نجحت تجاربي ؛ واستطعت ان احيي ارنبا بقلب ارنب آخر .!

وبهذا تفتح امامي اول الطريق الى شفاء [رجاء] فما علي الا ان اجري لها هذه العملية .. لاخلصها من قلبها المعلول

ولكن ؟ من اين لي بالقلب البدل . ؟ من اين لي بالقلب السليم الذي اضعه لرجاء ؟ ان نجاح تجربتي يتوقف على قلب حي ينبض ينزع من جسد حي ؛ ليوضع وهو حي في جسد المريض ؛ ونصف تجاربي اقتصرت على اعداد الجهاز الخاص باستبقاء القلب حيا لبضعة ايام ؛ ومن السهل ان احضر قلب ارنب .. ولكن هل من السهل ان احضر قلب آدمي !؟ لا بد ان اكون مجرما . وانانيا واضع شرفي وشرف مهنتي تحت قدمي فارتكب جريمة قتل لاشفي [رجاء] . وكادت تنهار فرحتي بالنجاح تحت متاول هذه الأفكار السوداء .. لولا ان دق جرس التليفون ،

كان المتحدث صديقاً لي محام ؛ يخطرني بمرض زوجته المفاجئ ونقلها الى المستشفى ويشدد علي في الحضور لاكون احد اطباء الاستشارة الاجماعية التي سيجريها لها .

واسرعت الى المستشفى ، فزوجة صديقي مازالت عروسا وزواجها كان خاتمة قصة حب دامت خمس سنوات ؛ وحرام ان تموت وما زالت ثياب العرس لم تطأها يد الكواء !

ودخلت على الاطباء المجتمعين فاذا بسحب اليأس تنعقد فوق رؤوسهم . انه الالتهاب البريتوني ؛ والالتهاب البريتوني من الحالات التي يلتقي فيها عمل الطبيب بعمل القسيس . كلاهما يطلب الرحمة والمغفرة للمريض .. ولاشيء غير هذا . !وطرأت لي فكرة القيتها على الاطباء المجتمعين كالقنبلة .. ساجري عملية للمريضة .. ورفض الاطباء ان يشاركوني في عملية التعذيب اليائسة التي سأجريها بلا موجب ولا امل .. وصممت ودخلت وحدي الى حجرة العمليات حيث كانت عروس صديقي مسجاة تنتظر مبضعي ؛ ولملك ادركت بنفسك ماذا كنت انوي ان افعل بها .

وانتهت العملية بالفشل طبعا وخرجت جثة العروس على المحفة ؛ جثـــة بلا قلب .! فقد سرقت قلب عروس صديقي واسرعت الى جهازي الخاص اودعه فيه .

اخيراً حصلت على القلب الحي بدون ان اتعرض لتأنيب حاد من ضميري ؛ وبقي ان احصل على موافقة [رجاء] عرضت عليها الامر فوافقت في الحـــال ، بل وأصرت بشدة . ! فقد ضاقت بعلتها ذرعا وكانت تثق بي كحبيب وكطبيب مما .!

وزارني صديقي المحامي الارمل ذات مرة . . فدعوته ليساعدني في العملية فقد كنت مصمما الا اطلع احدا له صلة بالطب على سري الخطير .. وحضر صديقي وساعدني في اجراء العملية . ونجحت العملية كما توقعت ، وعادت الحياة الى [رجاء] وبين اضلعها القلب الجديد السليم !!

ولم تمض ايام حتى استردت [رجاء] صحتها وتورد وجنتيها واشراقة بسمتها ، وقامت من فراشها لتبحث عن صديقي المحامي الارمل !! انها تشعر نحوه بعاطفة مفاجئة .. تحبه .. تعبده . انها لا تفكر إلا فيه .. ولا تسأل إلا عنه . . تقلق لغيابه . في حين انها لا تشعر نحوي إلا بالعرفان بالجميل ؛ وكل ما تكنه لي هو الرغبة في ان تدفع لي اجري كطبيب أدى عمله بنجاح !!

بكت وقبلت يدي وقدمي لاتركها تسعد البقية الباقية من عمرها بجوار صديقي المحامي الذي تحبه ؛ هي لا تعرف أين راح حبها لي ، ولا من أين هبط عليها هذا الحب الجديد ! ؟ هي لاتعرف اني انا الذي نزعت حبها لي بيدي هذه عندما نزعت قلبها القديم وانا الذي وضعت لها حبها الجديد بيدي هذه عندما وضعت قلبها الجديد ! هل استطيع وانا الجاني وحدي ان اذاقف عقبة في سبيلها ! اليس القلب الذي بين اضلعها قلب العروس الشابة ؟ زوجة صديقي المحامي الذي مات وهي تحبه الى حد التقديس؟ وهل تستطيع [رجاء] ان تحرر من الهاتف العنيف الذي يصرخ بين حنايا صدرها !؟

هجرت كل شيء . . بعد ان احرقت عيادتي ومعملي . ! وظللت اسير على غير هدى حتى اسلمت نفسي الى نقطة البوليس جاؤا بي الى هنا .

انا سعيد لأن احدا لايستطيع ان يصدق قصتي هذه ؛ وانا نفسي اتمنى ألا اصدقها واشعر بالراحة كلما لمحت في عيون من اقصها عليهم بريق الشك والتكذيب ، وساشفى ويعود لي كل عقلي وفكري وفني .. يوم اتأكد انها قصة من وهم الخيال وخلقه . وانها لا تمت للواقع بصلة !!

وانتحب [احمد] واقفا والدموع تترقرق في عينيه . وغادر الغرفة ، وتركني غارقا في لجة من الحيرة — وانهارت ابسط مبادىء الطب امام عيني حتى كدت انقد عقلي بدوري انا الآخر ؛ هل هي قصة من الواقع ام من نسج خيال مجنون ؟

لمحات ..

١ — تتقاذف الناس اليوم امواج من الاراء ، وكل تراه يدعو لنفسه زاعماً انه على الحق ؛ غير انك اذا حاكمت كل واحد منهم على الطريقة المنطقية اتهمك واخذ يدعو ضدك فتندك في نفسك فكرة الاصلاح ، ثم ترجع وانت تلعن نفسك لماذا اردت الخير .

٢ — يقول بعض الحمقى ان لاخلاص يستحق الذكر والثناء واذا ما قلت له انك خائن شتمك ، ولكن بعد ان تطلب منه وجود المخلص قال انا : فللهابوه ، ولله ما تقدم لنا الظروف من شذاذ لاهم في الخير ولا في النفير .

٣ — تأسس في العراق معمل لصنع السيكاير بناء على تشجيع المصنوعات الوطنية ، وبعد فترة قصيرة من تأسيس ذلك المعمل سمعنا ان تأسس اكثر من خمسة عشر معملا للدخان فقط مع حاجة البلاد الى مئات من حيوية ؛ واليوم وقد غمرتنا موجة من الجميات الجديدة باكثر من معامل السيكاير فحيا الله المشاريع الوطنية الحساسة الخالصة من شائبة النقد وحيا الله الرجال المخلصين .

وانتهت زيارتي للمستشفى ، وفي السيارة التي اقلتنا تسابق الريح قلت لصديقي الدكتور مصطفى — :

— احترم احمد هذا يا مصطفى فمنذ اربعة اعوام كان طبيبا يفوقك براعة وفناً !

وانفجر صديقي الطبيب ضاحكا ثم قال :

— منذ اربعة اعوام كان — احمد — كما هو الآن مريضاً بالمستشفى فقد دخله منذ اكثر من عشرة اعوام ! انه شخصية مسلية للغاية .. كل ما يعيبه انه يريد ان يقتل كل محلم يراه !

فابتسمت وقلت لصديقي :

— ان لم يكن هذا — احمد — طبيباً يفوقك براعة وفناً ؛ فهو قصاص يفوقني براعة وفناً . !!

مصر: اسماعيل الحروك